



لن يُسقط هذا الصراع الدولي الذي يحتمد في سوريا نظاماً، ولن يقضي على ثورة، ولن يوصل إلى تسوية سلمية تخرج سوريا من مأزقها التاريخي، فمثل هذا الهدف غير وارد في استراتيجيات الصراع الدولي، ولا يرصد له الفاعلون موارد ولا قوى بشرية، هل سمع أحد باستراتيجيات مصممة لبناء الدولة، ما لم تكن هناك مصالح ملحة؟

فيما العكس هو الصحيح، يجري تصميم الإستراتيجيات الدولية، وفي حالات الصراع المتكافئ والمدعوم بميزان الردع، على قاعدة التوازن في النفوذ الذي تتم ترجمته على شكل تقاسم للحيز الجغرافي محل الصراع، كما حصل في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، وشبه الجزيرة الكورية في الخمسينيات، وكذلك فيتنام في بداية السبعينيات. وفي هذه التجارب، تشكل الصراع وانتهى عند خطوط جغرافية، ثم تشكلت السردابات الوطنية والهويات الأيديولوجية وأشكال الإنتاج الاقتصادي وأنماط المعيشة، لتحول إلى خنادق لتحصين الحدود، وتبنيتها نهائياً.

تأتي التطورات في سوريا، أخيراً، ضمن سياق التسابق على مناطق النفوذ وتبني حدود الجغرافيات المستهدفة، فإذا كان الأسد، ومن خلفه روسيا وإيران، قد خططوا لاستثمار السلاح الكيميائي في عملية تفريغ غرب سوريا من سكانها السنة، واستكمال عملية السيطرة على "سوريا المفيدة"، فإن ضرب أميركا مطار الشعيرات العسكري كان بعرض تعطيل فاعلية الخطوط الأمامية المتاخمة للنفوذ الأميركي في شرق سوريا، واستكمالاً لعملية رسم الحدود بالنار، من منبع في الشمال إلى التنف في الشرق.

وتترافق تلك التطورات مع حالة من التمرس في المواقف الدولية، والارتكاز على القوة وسيلة وحيدة للحل، بالاعتماد على السيطرة النارية المتحققة لكل طرف. ومع وجود قوى إقليمية باتت ترى أن أنها القومي يقع خلف خطوط الصراع في سوريا، وأن الجميع يحارب في سوريا لحماية عواصمها، وبعيداً عن مدى مصداقية هذه النظرية، إلا أنها أصبحت المحرك الأساس للسياسات الإقليمية، والحافز الذي يدفعها لتبرير انحرافها في الصراع السوري.

غير أن الأهم في خريطة الصراع السورية أنه، في مجلـل الجغرافـيات المتشـكلـة في سـورـية، ثـمـة روـابـط وـنسـجـا اـجـتمـاعـيـة بـاتـت تـشكـل روـافـع لـلـوـاقـع التـقـسيـميـ، وـأـدـوـات تـشـغـيلـيـة لـمـشـارـيع الـآخـرـينـ، فـالـجـمـيع يـقـاتـلـ السـورـيـينـ بـالـسـورـيـينـ، وـهـمـ المـادـة الـأسـاسـيـةـ عـلـىـ الجـبـهـاتـ، وـتـعـزـزـ هـذـهـ الحـقـيقـةـ عـبـرـ فـنـاتـ صـاعـدـةـ فـيـ الـأـقـالـيمـ السـورـيـةـ لـدـيـهـاـ تصـورـاتـ، وـتـفـرـضـ أـنـماـطـ سـيـاسـيـةـ خـاصـةـ بـهـاـ، وـهـيـ فـنـاتـ مـحـلـيـةـ، الـوـطـنـ بـالـنـسـبـةـ لـهـاـ هوـ الـمـجـالـ الـذـيـ تـوـجـدـ فـيـهـ مـصـالـحـهـاـ وـرـوـابـطـ الـقـرـبـيـ الـمـبـاـشـرـ لـهـاـ بـالـعـرـقـ، أوـ الـطـائـفـةـ.

وـلـاـ يـبـدـوـ أـنـ لـلـصـيـغـ المـطـرـوـحةـ لـلـلـحـلـ حـظـوظـاـ فـيـ التـطـبـيقـ، وـهـيـ تـبـدـوـ مـعـوـقـاتـ تـطـرـحـهـاـ الـأـطـرـافـ الـمـتـصـارـعـةـ أـكـثـرـ مـنـهـاـ مـقـارـبـاتـ لـلـحـلـ، فـلـاـ روـسـيـاـ سـتـقـبـلـ، بـأـيـ شـكـلـ، التـضـحـيـةـ بـالـأـسـدـ الـذـيـ صـنـعـ لـهـاـ مـكـاـسـبـ جـيـوـسـيـاسـيـةـ، لـمـ تـحـلـ بـهـاـ فـيـ ظـلـ إـمـكـانـاتـهـاـ، وـلـاـ أـمـيرـكـاـ مـسـتـعـدـةـ لـلـقـبـولـ بـهـيـمـنـةـ روـسـيـةـ شـامـلـةـ عـلـىـ كـامـلـ الـجـغـرـافـيـةـ السـورـيـةـ، وـإـضـاعـةـ فـرـصـةـ تـمـنـحـهـاـ حـضـورـاـ قـوـيـاـ فـيـ شـرـقـ سـورـيـةـ وـشـمـالـ الـعـرـاقـ.

عـلـىـ ذـلـكـ، أـصـبـحـ التـقـسيـمـ الـجـغـرـافـيـ فـيـ سـورـيـةـ وـاقـعـاـ مـنـظـورـاـ وـمـعـاـشـاـ، وـسـتـتـرـكـ الـصـرـاعـاتـ الـجـارـيـةـ وـالـتـسـوـيـاتـ الـمـحـتمـلـةـ عـلـىـ الـحـدـودـ وـالـمـسـاحـاتـ الـتـيـ يـحـقـ لـكـلـ طـرـفـ السـيـطـرـةـ عـلـيـهـاـ، وـهـذـهـ قـابـلـةـ لـلـخـضـوـعـ لـعـلـمـيـاتـ تـبـادـلـ، وـالـتـيـ يـبـدـوـ أـنـهـاـ بـدـأـتـ بـاـكـرـاـ فـيـ مـاـ يـسـمـىـ اـتـفـاقـ الـمـدـنـ الـأـرـبـعـ، وـلـيـسـ بـعـيـدـاـ ظـهـورـهـاـ فـيـ الـحـسـكـةـ وـالـقـامـشـلـيـ وـرـيفـ الـرـقةـ بـيـنـ الـأـكـرـادـ وـالـعـرـبـ. مـنـ الـمـسـتـبـعـدـ تـحـوـلـ الـصـرـاعـ بـيـنـ الـأـطـرـافـ الـدـولـيـةـ وـالـإـقـلـيمـيـةـ إـلـىـ صـرـاعـ مـبـاـشـرـ، هـذـاـ أـمـرـ يـتـجـبـهـ الـجـمـيعـ، نـظـرـاـ لـاـرـفـاعـ تـكـالـيفـ وـخـطـورـتـهـ الـمـؤـكـدةـ. وـمـنـ جـهـةـ أـخـرـىـ، لـأـنـ هـذـهـ الـأـطـرـافـ مـقـنـعـةـ، إـلـىـ حدـ ماـ، بـالـحـصـصـ الـتـيـ تـقـعـ تـحـتـ سـيـطـرـهـاـ. وـبـالـتـالـيـ، مـحـفـزـاتـ الـصـرـاعـ الـمـبـاـشـرـ غـيـرـ مـتـوـفـرـةـ، وـيـمـكـنـ لـهـذـهـ الـأـطـرـافـ أـنـ تـتـعـاـيـشـ مـعـ هـذـهـ الـحـالـةـ، وـتـوـفـرـ الـآـلـيـاتـ الـمـنـاسـبـةـ لـضـبـطـ الـعـلـاقـةـ بـيـنـهـاـ فـتـرـةـ طـوـيـلـةـ. غـيـرـ أـنـ هـذـاـ تـعـاـيـشـ سـيـدـفـعـهـاـ إـلـىـ تـرـكـيـزـ مـوـارـدـهـاـ وـقـوـاـهـاـ لـلـحـفـاظـ عـلـىـ تـمـوـضـعـهـاـ، وـتـرـسـيـخـ حدـودـ تـلـكـ الـتـمـوـضـعـاتـ، مـاـ يـعـنـيـ، بـالـنـتـيـجـةـ، حـصـولـ ضـنـغـطـ مـكـثـفـ عـلـىـ وـحدـةـ الـجـغـرـافـيـةـ السـورـيـةـ، الـهـشـةـ نـتـيـجـةـ سـنـوـاتـ صـرـاعـ مـدـيـدةـ بـيـنـ مـكـوـنـاتـهـاـ، وـحـالـةـ الـفـوـضـىـ النـاـشـئـةـ عـنـ تـدـاـخـلـ الـجـغـرـافـيـةـ وـتـخـارـجـهـاـ بـيـنـ سـورـيـةـ وـالـإـقـلـيمـ، بـمـاـ يـجـعـلـ التـقـسيـمـ أـقـلـ الـأـكـلـافـ وـأـكـثـرـهـاـ فـاعـلـيـةـ لـلـحـالـةـ السـورـيـةـ.

لـيـسـ مـبـكـرـاـ الـاعـتـرـافـ بـهـذـهـ الـحـقـيقـةـ الـتـيـ اـرـتـسـمـتـ عـلـىـ شـكـلـ مـنـاطـقـ مـنـفـصـلـةـ مـنـذـ أـرـبـعـ سـنـوـاتـ وـأـزـيدـ، وـكـانـتـ تـرـجـمـاتـهـاـ الـأـشـدـ وـضـوـحـاـ عـبـرـ عـلـمـيـاتـ التـفـرـيـغـ الـطـائـفـيـ وـالـعـرـقـيـ ضـدـ الـأـكـثـرـيـةـ فـيـ غـرـبـ سـورـيـةـ وـوـسـطـهـاـ وـشـرـقـهـاـ وـجـنـوـبـهـاـ. وـالـيـوـمـ يـأـتـيـ الـصـرـاعـ الـدـولـيـ لـيـثـبـتـهـاـ، وـيـزـيدـ مـنـ مـنـسـوبـ التـعـقـيـدـاتـ الـمـحـيـطـةـ بـأـزـمـةـ مـعـقـدـةـ أـصـلـاـ، تـخـتـلـ فـيـهـاـ صـرـاعـاتـ مـذـهـبـيـةـ وـعـرـقـيـةـ وـإـقـلـيمـيـةـ وـدـولـيـةـ. وـفـيـ هـذـهـ النـوـعـ مـنـ الـصـرـاعـاتـ، لـيـسـ مـهـمـاـ لـأـيـ طـرـفـ الـاحـتـفـاظـ بـالـصـيـغـ (ـالـحـرـصـ عـلـىـ حـمـاـيـةـ وـحدـةـ سـورـيـةـ)ـ بـقـدـرـ مـاـ يـهـمـ حـرـمـانـ الـطـرـفـ الـآـخـرـ مـنـهـ، فـلـاـ أـمـ لـسـورـيـةـ غـيـرـ شـعـبـهـاـ، وـلـاـ حـيـلـةـ لـشـعـبـهـاـ فـيـ مـوـاجـهـهـ صـرـاعـاتـ أـكـبـرـ مـنـ طـاقـتـهـ وـقـدـرـاتـهـ الـتـيـ اـسـتـنـزـفـتـ فـيـ ثـورـةـ ضـدـ الـطـاغـيـةـ.

العربي الجديد

المصادر: